

٣ - فساد الطريقة

في كتاب النثر الفني

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

سورة الفهرام

من عجيب عيوب الكتاب سوء فهم صاحبه لنصوص تعرض لها؛ فإن أقل ما ينتظر من أديب متخصص ألا يخطئ معنى نص إن عرض له في بحث؛ فإذا هو أخطأ كما أخطأ صاحب الكتاب كان ذلك دليل نقص في الفهم أو الفكر أو نقص في الإخلاص للحق الذي زعم أنه يبحث عنه. ونحن موردون لهذه الظاهرة في الكتاب أمثلة شتى تختلف في أهميتها وتنفق في دلالتها

وأول ما نذكر من ذلك موقفه من الآية الكريمة: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذن لارتاب المبطلون»؛ فقد احتج بها لنفسه على المسيو مرسية، كما سبق أن أشرنا في بعض ما سبق من الكتاب. المسيو مرسية ينكر إنكاراً مطلقاً أن يكون في العصر الجاهلي نثر فني أو مؤلفات نثرية، وصاحب الكتاب يزعم أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية. وحجة المسيو مرسية أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها، كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم. وحجة زكي مبارك أن فقدان تلك الآثار لا يكفي لإنكار أنها كانت موجودة، وأن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي، فيهم بتلفيق القرآن مما قرأ فيها «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذن لارتاب المبطلون» كما يستشهد صاحب الكتاب

والآية الكريمة لا تدل على شيء مما ذهب إليه زكي مبارك لأن الحجة فيها تصدق بأمية الرسول صلوات الله عليه مع عدم وجود الكتب، كما تصدق بأمية الرسول مع وجود بعض الكتب. ووجود بعض الكتب يصدق بوجود التوراة التي كان معروفاً أنها موجودة، وحاكم الرسول أهل الكتاب إليها في أكثر من حادثة. فاستشهاد صاحب النثر الفني بالآية على وجود كتب دينية وأدبية لعرب الجاهلية تمسفو تصيد للدليل.

فهو قد جرى مع الهوى إن كان قد فهم الآية، وهو لم يفهم الآية إن كان لم يجز مع الهوى. وقد كان واجباً عليه إن كان يبحث للحق لا للهوى أن يقارن هذه الآية بأمثالها من القرآن ليفسر بعضها ببعض، ولينظر هل تنصرف الآيات الأخرى فيما ذهب إليه؛ ولو فعل لواجهته آيات عدة كلها تشهد ضده: مثل قوله تعالى «أم آتيناكم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون»^(١)

وقوله تعالى: «ابتوني بكتاب من قبل هذا أو أنارة من علم إن كنتم صادقين»^(٢)

وقوله تعالى: «أم لكم سلطان مبين. فائتوا بكتابكم إن كنتم صادقين»^(٣)

وقوله تعالى «أم لكم كتاب فيه تدرسون»^(٤)

وقوله تعالى: «وما آتيناكم من كتب يدرسونها، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذر»^(٥)

فهذه كلها آيات تدل على عكس ما فهم زكي مبارك من الآية التي استشهد بها من سورة العنكبوت وأخطأ فذكر أنها من سورة القصص؛ والآيات التي أوردناها تتدرج في تعميم النفي، نفي ما ذهب إليه زكي مبارك حتى لا تدع الآيات الأخرى منها عند المسترشد بالقرآن شكاً في أن الجاهليين لم يكن لديهم كتب تدرس في الدين أو في الأدب. وهذا يتفق مع وصف الله إياهم بالأميين في قوله سبحانه من سورة الجمعة: (هو الذي يمث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)؛ كما يتفق مع الحديث الصحيح: نحن أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا. فهذه كلها نصوص تشهد على صاحب النثر الفني أنه لم يفهم آية سورة العنكبوت، وتتركه كالفينة على اليس ليس له إلى ما يريد من سبيل

هذا مثل من سوء فهم صاحب الكتاب وفساد طريقته، أو من مجزه حين يتطلب منه البحث شيئاً من التحقيق. ومثل آخر هو أعجب من هذا وأقبح، موقفه من آية أخرى، آية سورة هود. فإنه بعد أن أبدأ وأعاد في أن القرآن من جنس كلام العرب وجوهره ومعدنه، لا يمتاز - زعم - بالأسلوب ولكن بقوة المعنى وقوة الروح، أراد أن يفخر لماذا لم يأتوا بشيء من مثله فقال:

(١) سورة الزخرف (٢) الأحقاف (٣) الصافات (٤) الفم (٥) سبأ

أراد بقوله : « وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعاً أنبياء » إلى آخر ما قال تفسيراً لعدم استطاعتهم الإتيان بمثل القرآن على أن همنا الآن ليس هو العودة إلى تبيان رأي صاحب الكتاب في القرآن ان هو ؛ فهذا إنما جاء عرضاً ، ولولا ما جاء متملقاً به في الشاهد الذي أوردناه من كلام صاحب الكتاب ما عرجنا عليه . إنما همنا أن ندل على عجيب سوء فهم صاحب الكتاب للآية التي أورد بعضها من سورة هود . وسوء فهمه يتجلى في سمله (إن كنتم صادقين) في الآية الكريمة على الصدق الخاطي لا على الصدق الإخباري في قول خاص قد قالوه ، كما يتجلى في زعمه أن في هذه الكلمات الثلاث ، بهذا المعنى وعلى هذا الوجه ، الجواب كل الجواب على سؤال السائل : لماذا لم يأت العرب بمثل القرآن وهو من جنس كلامهم ، لا يمتاز عنه بأسلوب ، ولكن بقوة المعنى والروح . ونعني بالامتياز في الأسلوب يستلزم طبعاً نفي الامتياز بقوة الروح ، كما أن إثبات قوة الروح يستلزم إثبات قوة الأسلوب لو كان صاحب الكتاب يعرف مظاهر قوة الروح في الكلام . ولكنه مشغول عن كل هذا بظنه أن المسألة مسألة صدق معنوي روحي لحسب ، فلو صدق العرب مثل صدق محمد لجاءوا بمثل القرآن . وهذا طبعاً يترك الباب مفتوحاً للإنسانية في مستقبل الزمن وحاضره أن تأتي بمثل القرآن إذا وجد فيها من يبلغ من الصدق المبالغ المطلوب !

ولسنا ندري كيف خفي على هذا الرجل أن الصدق على هذا الوجه يفسد النص الذي ذكره من الآية الكريمة ، ويدخل عليه من الخلل والتناقض ما لا يخاطر ببيال ، إذ بصير معنى ما اقتضب من الآية هو : فائقوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كان خلقكم الصدق في القول والعمل ا وواضح أن فعل الشرط هو مدار التمجيز لعدم توفره فيهم ، ولو توفر لاستطاعوا أن يأتوا بما طلب منهم أن يأتوا به . فيكون المعنى على فهم صاحب الكتاب أنهم لو كانوا على خلق من الصدق ، وطبع من محبة الحق والبصر به ، لاستطاعوا أن يفتروا عشر سور من مثل القرآن ! وما دام الصدق المشروط قد توفر في محمد إلى حد لم يتوفر فيهم ، فمحمد استطاع أن يفترى كل القرآن على فهم صاحب الكتاب . ونعوذ بالله من الخذلان !

طبعاً لم يفصل القرآن في الموضوع هذا الفصل المطابق لفهم زكي مبارك أو الموافق لوحى شيطانه . وإن فهماً يخرج

« القرآن نفسه فصّل في هذه المسألة حين قال (فائقوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) . فلنتأمل جيداً عبارة (إن كنتم صادقين) ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعاً أنبياء حتى يصلوا إلى ما وصل إليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلماتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟ »

وهذا الكلام من صاحب الكتاب فيه أكثر من عجيبة واحدة فإن قوله « زعيمهم وسيدهم الخ » خلط بين حال النبي بعد فتح مكة وحاله قبل فتحها ، قبل الهجرة ؛ فإن الآية التي ذكر من سورة هود ، وسورة هود مكية أي نزلت قبل الهجرة . ولم يكن عدد المسلمين قبل الهجرة يزيد على بضع مئات إن كان بلغها ، فلم يكن للنبي صلى الله عليه زعامة على أهل مكة بله العرب إذ ذاك ولا سيادة . فصاحب الكتاب إما أن يكون على جهل بالآية متى نزلت ، وإما أن يكون أراد اتقاء التهمة عند الناس وفي قوله : « وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعاً أنبياء حتى يصلوا إلى ما وصل إليه مواطنهم الخ » عجيبة أخرى ، لأن فيه إشارة خفية أو ظاهرة إلى أن محمداً وصل إلى القرآن من نفسه بصدقه الذي عرفوه فيه قبل نبوته ، ولما لم يكونوا مثله في الصدق لم يستطيعوا أن يأتوا بقرآن كقرآنه ، ولو كانوا مثله في الصدق لاستطاعوا . وإذا كان العرب جميعاً لم يكونوا على مثل صدق محمد قبل نبوته ، فليس من الممتنع عقلاً أن يكون بعضهم كان على مثل صدقه ذلك . فكلام صاحب الكتاب هذا يترك الباب مفتوحاً لإمكان إتيان بعض العرب بمثل القرآن ، من غير أن يفسر لماذا لم يأت ذلك البعض بمثله

ولا يتبين ما وراء هذا الكلام لصاحب الكتاب إلا إذا قورن بقوله من مناظرة له في كلية الآداب : « فيكم من قرأ القرآن وفيكم من قرأ التوراة وفيكم من قرأ الإنجيل ... وهل فيكم من ينكر أن من أعظم الجوانب في تلك الكتب هي الجوانب الخاصة بالتشريع ؟ ولن توضع قواعد التشريع إذا اطمأن الأنبياء إلى أن المجتمع في أمان من شر الفساد والاحلال » وفي قوله : « إذا اطمأن الأنبياء » الدليل كل الدليل إلى رأي صاحب الكتاب في قواعد التشريع في القرآن والتوراة والإنجيل هل هي من وضع الأنبياء أو من عند الله . ومن هنا يتبين ماذا